



في بلدة حدوذية راكدة يتجلو الفتى دون أن يلاحظه أحد؛ واحد من مئاتآلاف اللاجئين الذين فروا من الحرب الأهلية في سوريا؛ منطلاقاً عبر القرى والمزارع، ليسافر في الأردن، على بعد خمسة أميال فقط من بيته. ولكن هذا الشاب يحمل عبئاً، وربما شرفاً أيضاً، لا يتقاسمه تقريباً مع أحد آخر، هو يعلم أنه وأصدقائه ساعدوا في بدء كل شيء، لقد أشعلوا انتفاضة.

لقد بدأت ببساطة كافية، لم تكن مستوحاة كثيراً من النشاط السياسي بقدر ما كانت مستوحاة من ثورة المراهقة ضد السلطة، والملل.

شاهد أحد أبناء عمومته يرش بالطلاء حائط أحد المدارس في مدينة درعا بتحذ شقي قصير للرئيس بشار الأسد، طبيب العيون المدرب، حول الثورات الوطنية الممتدة.

﴿كتب ابن عمه: "إجاك الدور يا دكتور."﴾

الحلقات الأولى من الربيع العربي آخذة بالنمو إلى مسافة أبعد، وذكرتهم مغطاة بالخوف مما سببته الثورات. في الفوضى في مصر، يتحدث ناشطون عن ثورة ثانية. وفي تونس، اغتيال سياسي هذا الأسبوع عرض للخطر واحداً من التحولات الأكثر تفاؤلاً في المنطقة.

ثم هناك سوريا، حيث قتل الآلاف، وفر مئات الآلاف من البلاد، وفكرة الدولة نفسها آخذة بالاختفاء وسط دورات سفك الدماء الطائفية.

وحشية الحرب جعلت من الصعب أن نتذكر، ناهيك عن الاحتفال، ببدايات الثورة. بعد الكتابة على الجدران، اعتقل المراهق وأصدقاؤه وتم تعذيبهم؛ الأمر الذي أدى إلى المظاهرات التي، إذا ما نظرنا إلى الوراء، كانت أولى أيام الحرب الأهلية.

وبعد عامين، ما زال الأولاد مجهولين في معظمهم، مثل محمد بوعزيزي، بائع الفاكهة، الذي كانت

تضحيته بنفسه بداية الثورات العربية، أو كhaled سعيد، الشاب الذي ساعد ضربه حتى الموت على أيدي الشرطة المصرية على بدء حركة التغيير.

بعض الصبية من درعا لاجئون أيضاً في الأردن، كصديقهم، والآن وافق 17 منهم على الحديث أسوة بوالده، طالما لم يتم الكشف عن اسمه.

قالوا إنهم كانوا يحمون أقارب ترکوا خلفهم في سوريا، لكن ترددتهم أتى أيضاً بسبب العار، حيث أن والد الصبي كان قد سلمه إلى الشرطة ليحتفظ بابن آخر، والصبي أبلغ ثلاثة آخرين من أصدقائه لمحاولة تجنبهم التعذيب الذي تعرض له على أية حال.

وبالنظر إلى كل ماحدث لعائلته ووطنه، قال الصبي إنه لا يشعر بالندم، "ولماذا علي أن أفعل؟ من الجيد أن ذلك حدث." قال ذلك خلال لقاء رتبه لاجئون آخرون من درعا، وعن الأسد قال: "لقد اكتشفنا من هو حقاً." كل شيء بدأ بالكتابة على الجدران.

الحكومة المتورطة جراء الإطاحة بالحكام عبر العالم العربي، تصرفت بشراسة إزاء الإهانة، معتقلة الصبي وعشرات الأولاد الآخرين، وعذبتهم بعد ذلك لأسابيع.

أقارب الصبي والجيران ومئات الآخرين في المدينة تجمعوا في احتجاجات مطالبين بإطلاق سراح الأولاد. فتحت قوات الأمن النار على الحشود.

كانوا يظنون أن عدم التسامح سوف يمنع التصعيد من قبل الحشود، لكنهم كانوا مخطئين.

من غير الممكن تأكيد تفاصيل قصة الصبي بشكل مستقل، لكن خطوطها العامة تتطابق مع قصص بعض الأولاد الآخرين من درعا والذين تكلموا عن تلك الفترة.

ثلاثة سكان آخرون للمدينة منهم اثنان عاشا في نفس الحي الذي عاش فيه الصبي وأسرته، أكدوا أنه كان من بين الصبية الذين تم اعتقالهم في شهر آذار مارس 2011.

معيناً تلك الأيام، قال الصبي إن ليلة بلا نوم مرت عليه بعد تصرفات ابن عمه المليئة بالتحدي.

لم تكن الكتابة على الجدران فقط، لقد أضرم ابن عمه النار في كشك جديد للشرطة في نفس اليوم في تصرف هجومي آخر.

لم يتحدث الصبي وأصدقاؤه بالسياسة كثيراً، لكن لغة المعارضة كانت في كل مكان على القنوات الفضائية.

احتجاجات صغيرة بدأت بالاشتعال في دمشق، "لقد كان الوقت المناسب"، قال الصبي.

في الصباح التالي لاحظ عناصر المخابرات عند المدرسة.

كان لديه القليل من الشك حول سبب وجودهم هناك، قال: "كنا نعرف ما فعلناه."

خلال الأيام القليلة التالية، كانت الشرطة والجيش والشرطة العسكرية يجوبون المدينة ليلاً نهاراً، يقتحمون منازل المشتبه بهم.

قال الصبي إنه ذهب للاختباء، وقال: "ظننت أن ذلك سينتهي، لكنه لم ينته." عندما طرقت الشرطة أخيراً على باب بيت العائلة، هدد الضباط بأخذ ابنهم الآخر، ووعد العناصر الأب إذا ماقام بتسليمهم الصبي أنه سيحتجز لعدة أيام فقط.

امتنل الأب وأخذ ابنه إلى مقر قوات الأمن المحلية.

بدأ الصبي بالبكاء والتسلل ليعود إلى البيت، لكن الأب ترك ابنه خلفه.

وعندما عاد إلى المنزل قالت زوجته: "أنت المسؤول عن أي شيء سيحدث له."

بدأ الإيذاء الجسدي حالما وصل الصبي سجن مدينة السويداء حيث تعرض للضرب أثناء استجوابه.

"هل أنت من كتب ذلك؟" سأله المحقق، وكان ذلك أمراً أكثر مما كان سؤالاً.

قال الصبي إنه ترك المدرسة عندما كان في الثامنة، “أنا لا أعرف الكتابة”， هذا ما أخبر به المحقق طوال ثلاثة أيام، حتى اعترف، يائساً من توقف التعذيب، أنه كتب الجملة، مع أنه لم يفعل. وأعطى أيضاً أسماء ثلاثة من الصبية الذين كانوا هناك في ذلك اليوم.

خلال أسبوعين من الاعتقال، تلقى الوالد مكالمة للذهاب إلى الجامع العمري في درعا للاحتجاج، جزئياً من أجل المطالبة بالإفراج عن الفتى.

عشرة أشخاص كانوا قد تجمعوا هناك بالفعل، وقال إنه والآباء الآخرين اقتنعوا بأنهم إذا لم يقوموا بالاحتجاج “فسوف يأخذون المزيد من الأطفال.” كبرت المظاهر، وسرعان ما رأى هناك كل شخص يعرفه في المدينة تقريباً.

من المستحيل أن نقول كيف كان من الممكن أن تتحول الأمور لو أن حكومة الأسد اتخذت موقفاً أكثر ملائمة تجاه الاحتجاج.

ناشطون من درعا ما زالوا يصررون أن الضغوط كان من الممكن احتواها والتسويات كان من الممكن الوصول إليها، حتى بعد سنوات من القمع العنيف.

لكن أي أمل مماثل سرعان ما يزول بازدياد الموت. “لم يعد بالإمكان السيطرة على الناس”， يقول الأب.

في وقت ما، بعد اندلاع الاحتجاجات في درعا، تناهى إلى سمع الأب أنه سيتم إطلاق سراح الأولاد، والفتى، غير مدرك لانتشار الثورة، قال إنه وضع في حافلة صغيرة، مع أولاد آخرين من درعا، وتم إرسالهم إلى بيوتهم، عندما وصل، قال الوالد: “لم أستطع التعرف إليه.”

فر ابنه إلى الأردن منذ قرابة العام، حيث يقضي وقته في البحث عن عمل كعامل يومي، ويحلم بالعودة لقتال الحكومة في سوريا.

منذ شهرين تقريباً، سمع أن ابن عمه الذي كتب على الجدار واستطاع تدبر تجنب الاعتقال، انضم إلى الثوار كمقاتل، وقتل.

كلنا شركاء

المصادر: